الشعر :

من (المدنّس) إلى اكتشاف (المقدّس):
(الباقلانيُّ) و(عبد القاهر الجرجانيُ) إنموذجاً.

أ.د فاضل عبود خميس التميمي*

المدخل:

يشــكّل الشعر مكانة مهمّة في تاريخ العرب استمدّت وجودها من طبيعة الحياة التي كان العربيّ يعيشــها، وهو متوحّد مع بيئة قبلت أن يكون الشــعر (علامتها) المتميّزة في الجاهليّة، و(ديوانها)،[١] في العصور الإســلاميّة، وهذا يعني أنّ الشــعر بوصفه خطابا رافق الحياة العربيّة ليمثّل خير تمثيل آمال الإنســان، وآلامه في رحلة بدأت على ما يقول الجــاحظ (ت٢٥٥هـ) قبل مئة وخمســين ســنة إلى مئتين من ظهور الاســلام،[٢] ولمّا تنته بعد.

وبنــزول القــرآن الكريم، وتمكّنه من العقل العربي واجهت (العرب) يوم ذاك مســألة جديــدة تمثّلــت في تحديد طبيعة العلاقــة الرابطة بين لغة القــرآن الكريم، ولغة العرب، فكان أن اقترحوا إجابات تفضي إلى تحديد القاســم المشــترك بينهمــا، أو تحديد طبيعة النظــام الــذي يتحكّــم في صياغة كلّ منهمــا لكي يتمكّنــوا من الوقوف عند الفلســفة الجمالية التي تقف عند بنائهما.

كان الشــافعي (ت٢٠٤هـ) من أوائل المتنبهين على أنّ ثمّة قاســما مشتركا يربط بين العربيّة ولغة القرآن الكريم حين قال: «خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها، على ما تعرف من معانيها وكان ممّا تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها»،[٣] فهو في مقولته قارب بين اللغتين لفظا ومعنى، في إشارة دالّة على أنّ العربيّة لغة القرآن الكريم تفصيلا ودلالات. ويبدو أنّ أبا عبيدة (ت٢١٠هـ) كان قد وقف عند المســألة نفسها حين قال: «في القرآن مثــل ما في الــكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني»،[٤] وكلامه لا يترك شكّا في أنّه ساوى بين لغة القرآن الكريم، والكلام العربي بما فيه من شعر، ونثر لا سيّما في خصائص ظاهرة الإعراب التي تعدّ ســمة أصيلة في العربيّة لها أثر في تشكيل الدلالة، فضلا عن وجود الغريب أي الغامض من الكلام، والمعاني التي هي نتاج النظم والتعبير.

* كلية التربية للعلوم الإنسانيّة/ جامعة ديالى

وكان ابـن قتيبة(ت٢٧٦هـ) في كتابه(تأويل مشكل القرآن)قد رأى أنّ « للعرب(المجازات) في الـكلام، ومعناها:طـرق القـول ومآخـذه، ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخـير، والحـذف، والتكـرار، والإخفـاء، والإظهـار، والتعريض، والإفصـاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميـع خطـاب الواحد، والواحـد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص[...]، وبكلّ(هـذه المذاهب) نـزل القـرآن»،[٥] وهو يشـير إلى أنّ طرائق القول العربيّة هي نفسها طرائق التعبير في النصّ القرآني الكريم.

وكان القرآن الكريم قد حسم المسألة حين نصّ: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)،[٦] ولم يكن القرآن الكريم بدعا من الكتب السـماويّة الأخرى حين جعله الله سـبحانه وتعالى متلوّا ومكتوبـا بالعربيّـة التي كانت وسـتبقى لغة مشـهودا بأدبيّتها الراقية، وهي لغة قوم نزل بها كتاب الله المقدّس.

ويبـدو لي أنّ فهـم العلاقة بين لغـة القرآن، ولغـة العـرب ظلّت على مـا أثبته أبـو عبيدة، وابن قتيبة في القـرن الرابع الهجري أيضا، إذ لم يؤثـر عن ناقـد، أو دارس، أو فقيه أن قال بمـا يخالف المقولتـين السـابقتين، حتى طلّ القرن الخامس الهجري فحمل رأيين جديرين بالقراءة والتأمّل قال بهما ناقدان مهمّان :

الأوّل: أبو بكر الباقلانيُّ:

كان الباقلانـيُّ في كتابه:(اعجـاز القـرآن) قـد مثّل منهجيّة مهمّـة في تاريخ التأليف عند العرب حضرت فيها فكرتان رئيستان: الأولى: البحـث في الإعجـاز، والأخـرى حضـور النقد البلاغـي، فضلا عن اعتمـاد المؤلف على منهج نقـدي ذي رؤية وصفيّـة تحليليّة اسـتعانت بالنص القرآني، والخطاب الأدبي عند العرب، والكثير من المدونات البلاغيّـة والنقديّة، وهي تُريـد بناء كتاب حافل بـرؤى الإعجاز، والنقد معاً.

لقـد أفـاض الباقلانـيُّ البحـث في (الإعجاز البلاغي) بوصفه وجهاً مهمّاً من وجوه البلاغة العربيّة التي دافعت عن حقيقة القرآن، وصحّة العقيدة محدّدا إياها في عشر مسـائل،[٧] وكان قد قال في (المسـألة) التي مرّ عليها أبو عبيدة، وابـن قتيبـة، ولكن على وفـق رؤيـة مغايرة سنفصّل القول فيها في الآتي من الكلام:

بـدءً لا بـد من التأكيـد أنّ الباقلانيُّ كان قد رأى أنّ في لغـة القـرآن وجوها بلاغيّة ممّا هي موجـودة في لغة العـرب فالقـرآن الكريم: «لا ينفك...عـن فن من فنـون بلاغتهم [العرب] ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم»،[٨] وهذه إشارة أولى تحيل على اقراره باشـتمال القرآن الكريم على فنون البلاغة العربيّة المعروفة، لكنّ المتابع لأفكار الباقلانيُّ سيجده قد قسّم البلاغة على قسـمين:(إلهيّة)، وأخرى(بشريّة)، والقسـمة تحيل ضمنا عنـده بالنتيجة عـلى موازنة بين كلام (ربا ني) معجز ، و (إنسـا ني) متفا وت الجمـال، بمعنـى أنّ تلـك القسـمة عكسـت طبيعـة النظريـة التي تسـلح بهـا الباقلانيُّ، وهـو يدرس قضيّة الإعجاز التي كان قد وازن فيها بين القرآن الكريم والشـعر، أي- والكلام له- بين(الكلام الصادر عـن الربوبيّة، الطالع عـن الإلهيـة...و...شيء مـن الشـعر المجمـع عليه،[ليبـيّن] وجه النقص فيـه، و[يدل] على انحطاط رتبته، ووقـوع أبواب الخلل فيه):[٩] أي بين ما هو(مقدّس) القرآن، والشـعر الذي هو بحسـب رأيه (مدنّس):« ضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه »،[١٠] لكي يثبت تفوق(المقدس)عـلى (المدنـس)، وليـس هـذا بالأمر الصعب على المسلم الذي يؤمن بالفطرة

بتفوق القرآن على كل الخطابات .

لقد كان من الصعب على الباقلانيُّ أن ينظر بمعيار واحد إلى البلاغتين، وهو يؤمن أنّ لغة القرآن الكريم بألفاظها، وتراكيبها من لغة العرب، ولكن طريقة نظمها كما رأى تشكّل جنساً خاصّاً ليس من جنس كلام العرب أي أنّ(جنسيّة) لغة القرآن من غير جنسية لغة العرب، ودليله أنّ: «نظم القرآن جنس متميّز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص»،[١١] فجنسيّة اللغة القرآنية لها خصوصيّة استطاع الباقلانيُّ أن يحدّد أبرز سماتها في كتابه(نكت الانتصار لنقل القرآن)فالقرآن، ولغته:(ليس من نجار شيء من كلامهم، إنّه لو كان من نجاره لم يعجزوا إن يقولوا له: وما في هذا مما يُتحدى به؟، وهو نطقنا ونطق أسلافنا)،[١٢] أي- والكلام للباقلانيُّ- أنّ نظم القرآن(يخرج عن إمكان الناطقين لا على معنى أنّه تجويد كلام هو على معنى كلام العرب)،[١٣]بمعنى آخر والكلام أيضاً- لمّا يزل للباقلانيُّ:(إنّ القرآن ليس من وزن كلامهم ولا من نجاره، مع أنهم تُحدوا بذلك ويدل على أنّه ليس هو جميع أوزان كلام العرب، أنه لو كان كذلك لم يدهش فيه)،[١٤] وهذا يعني عنده:(إن الله تعالى قدر على أن يأتي من كلام العرب بما لا يقدر واحد من العرب على الإتيان بمثله).[١٥]

ممّا سبق يتبيّن أنّ الباقلانيُّ رأى في نظم لغة القرآن غير ما هو كائن في نظم العربيّة مع أنه كان قد أقرّ مسبقا لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغة العرب، ولا وجه من وجوه فصاحتهم، أي أنّ القرآن الكريم وإن كان من لغة العرب إلا إنه ليس من جنسها، أو نظمها المعتاد، وأن(بديعه)لا يمكن أن ندرك به إعجاز القرآن، بخلاف(البديع)الآخر الذي هو من نظم بشري متفاوت السبك، والجمال سواء أكان في الشعر أم في النثر.

ترى ما(سرّ)مغايرة الباقلانيُّ لسابقيه؟، وهل كان ينطلق من حاضنة فكريّة معروفة؟،لا شكّ في أنّ (السرّ)يرتبط بمجمل أفكاره التي استقاها من الفكر(الأشعري)الذي جاهر القول به،[١٦]والأشعريّة على اعتقاد فكريّ يفصل بين بلاغة القرآن الكريم، وبلاغة الأدب سبق للخطابي(٣٨٨هـ) أن وضّحه حين قال: إنّ(البلاغة التي اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات)،[١٧] هي البلاغة التي لا تشبهها بلاغة إنسان، ومعناها يتميّز من سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة،[١٨] أي البلاغة المعروفة، وهذا يعني، والكلام للخطابي أيضا:(أنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصلح من أجله الألسن على أنّه كلام لا يشبه كلام)،[١٩] أي لا يشبهه كلام البشر.

مما سبق يتبيّن أنّ (الخطّابي) كان قد سلك المسار الفكري الذي اختطّته (الأشاعرة) لنفسها، وهي تفصل بين بلاغة القرآن الكريم، والبلاغة العربيّة المبثوثة في شعر العرب، ونثرها، فبلاغة القرآن عند الاشاعرة (فائقة) في بنيتها ودلالتها؛ لأنّها من لدن واحد أحد لا يدانيه أحد، وهذا سرّ تفرّدها واختلافها عن بلاغة البشر.

لاشكّ في أنّ الباقلانيُّ كان (أشعريّا) ، ولأنه (أشعريّ) كان يرى أن بلاغة القرآن ليست من جنس بلاغة البشر، فكان له أن عدّ القرآن الكريم معجزا بكامله، أي بحروفه، وتراكيبه، وهو عند(الأشعريّة) صفة من صفات الله، وليس فعلا من أفعاله تعالى، صحيح أنّ الباقلانيُّ رأى أنّ مدرك الإعجاز يجب أن

يكون:(متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة)،[٢٠] لكنّه لم ير في الشعر إلا خطابا مفكّكاً و: (أن هذه الروائع على قيمتها تحتوي على الغث والركيك والسفساف، الشيء الذي تبرأ منه القرآن)،[٢١] وعند الباقلانيُّ(هيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه، وأن يكون الليل كالنهار، والباطل كالحقّ، وكلام ربّ العالمين ككلام البشر).[٢٢]

لقد رفض الباقلانيُّ وجود أي صلة بين القرآن والشعر تنزيها له، وهو القائل:(قد علمنا أنّ الله تعالى نفى الشعر عن القرآن)،[٢٣] وهو يرى أن لا يكون الكلام شعرا إلا إذا قصد المبدع اليه لا إلى غيره فـ (إنّ الشعر إنّما يطلق، متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يتعمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العاميُّ والجاهل، والعالم بالشعر، واللسان، وتصرفه،وما يتفق من كل واحد)،[٢٤] ويضيف:(فلا يصح أن يقع-الشعر-إلا من قاصد اليه)،[٢٥] أي الى الشعر، فالقصد إحالة، وإشارة إلى جنس الشعر، ومن دونها(يفارق أمر الشعر؛ لأنّه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصودا إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي نسميه شعرا)،[٢٦] أي أنّ(صورة الشعر قد تتّفق في القرآن، وإنْ لم يكن له حُكم الشعر)،[٢٧]ولو قال قائل والكلام للباقلاني(في القرآن كلام موزون كوزن الشعر، وإن كان غير مقفّى) ،[٢٨] كان جوابه:(ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه...أنّ القرآن خارج عن الوزن الذي بيّنا)،[٢٩] ويدل رأي الباقلانيُّ بمعلّقة امرئ القيس على مقدار استهجانه للشعر وإن كان صادرا عن فحل من فحول العربيّة فمعلّقته بحسب رأيه(ترددت بين أبيات سوقيّة مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشيّة غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة)،[٣٠] وله رأي بشعر ابن الرومي في قصيدته الشهيرة : (أهلا بذلكم الخيال المقبل) لا يقل استهجانا عن معلقة امرئ القيس.[٣١]

لقد صار واضحا أنّ الباقلانيُّ في خطابه السابق عني بـ:(مسائل المدرسة الأشعريّة، وصاغ آراءها في وضوح ودقة)،[٣٢]وهذا(السرّ) كان وراء فهمه النقدي الذي واجه به رفض الشعر، وهو ما جعل بعض النقّاد المعاصرين يؤاخذونه على موقفه: فزكي مبارك (١٩٥٢م) تحدث عن تحامل الباقلانيُّ على امرئ القيس، فهو لم ينقد معلقته إلا ليكشف عن تفاوت أبياتها قياسا بما في القرآن الكريم،[٣٣] ود. محمد مندور (١٩٦٥م) وصف نقده للشعر لغرض الاستدلال على إعجاز القرآن بأنه (لا غناء فيه، ولا استقامة لمقاييسه [...] فيظهر بذلك أنّ القرآن أبلغ وأفصح، وأبدع منه، وتلك هي الخطة العامة للباقلانيُّ الذي لا يدل على اعجاز القرآن في ذاته قدر تدليله على ذلك بتسخيف ما عداه من قول)،[٣٤] أمّا الشيخ محمود محمد شاكر (١٩٩٧م) فقد مدح صنيعه في الكشف عن اعجاز القرآن، ولكنه رآه قد(زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة)،[٣٥] ويعني بالزلّة تحامله على امرئ القيس.

وخلاصة القول الذي يمكن الاستئناس به أنّ الباقلانيُّ كان يريد أن يجعل الشعر-مهما بلغت سمة علوه في المرتبة الأدنى من القبول الأدبي لا لأنّه خطاب قوليّ حسب، بل لأنّه خطاب والقول له:(ضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه)،[٣٦] فهو مدنّس لا يمكن أن تتقارب لغته مع لغة القرآن الكريم، وقد توصّل إلى هذا التوصيف بسبب تأثير الفكر الأشعري في أهمّ مقولاته النقديّة،

وهـذا يعنــي أنّ سرّ الفهم النقـدي للباقلاني كان يرتبط بدرجة اندماجه بأفكار الأشـاعرة، ومحدداتهم النقديّة الخاصّة باللغة والأدب.

الآخر: عبد القاهر الجرجانيُّ:

مـن المعلوم أنّ كتاب:(دلائل الاعجاز) يتناول علم(المعانــي)، فضـلًا عـن موضوعات أخرى في علـم (البيان)، ولكـنّ الكتـاب في خلاصته النهائيّـة ينظـر إلى هذين العلمـين من خلال نظريّـة النظـم، وإجراءاتها، وهو يسـيح بين آيـات منتقاة من القرآن الكريم، وشـواهد من الأدب العربـي بجنسـيه المعروفـين: الشـعر والنثـر، في عصوره المختلفـة، فكأنّ الكتاب في منتهاه خلاصة ذكيّـة لأدبيّة الإعجاز القرآني، وطرائق تشكيلها.

شـكّل الشـعر مادّة مهمّة في البحث البلاغي عند عبـد القاهر الجرجانــيُّ في كتابة المذكور آنفـا، فقـد اتخذ مـن معرفته سـبيلا واضحا للوصول إلى فهم القرآن الكريم، وكان خير من دافع عن الشعر، وعن مكانته في فهم الإعجاز، وكانت له وقفة مع من ساء اعتقاده في طبيعة الشـعر، وأثره في بناء اللغة(الذي هو معدنها، وعليـه المعـوّل فيهـا، وفي علم الإعـراب الذي هـو لها كالنّاسـب ينمّيهـا إلى أصولها، ويبيّن فاضلها من مفضولها)،[٣٧]
وقـد جهّلَ الجرجانيُّ بالـكلام القاطع من ذمِّ الشـعر الذي أسرف في القدح بـه، فهو على ما رأى ذلك الذامّ:(ليس فيه كثير طائل، وأنْ ليس إلا مُلْحَـةً، أو فكاهة، أو بكاءَ منزل، أو وصفَ طلـل، ناقة، أو جَمَـل، أو إسراف قول في مدح، أو هجاء، وأنه ليس بشيء تَمَسَّ الحاجة إليه في صلاح دين، أو دنيـا)،[٣٨] والجرجانيُّ في نقله رأي من ذمّ الشـعر أراد التأكيـد على أهميّته، والانتقـال به من كونه مجـرد تعبير جمالي إلى أداء رسـالة اصلاحيّـة في الحياة، وهـذه أوّل عبـارة في تاريخ الأدب- في مـا أعلم- تنبّه على أنْ تكون للأدب رسـالة، وأنّ الفن ليس لمجرد الفــن، ولكنه للحياة أيضا،[٣٩] فالإصلاح الذي ورد في مقولـة الجرجانــيُّ لا يمكن فصله عن الوظيفـة الاجتماعيّة للأدب، تلـك التي ينادي بهـا اليوم منهجٌ نقديٌّ معروفٌ، ومؤسّسـات ثقافيّة واعلاميّة تجعل الأدب في خدمة المجتمع ومن أجله.
وقـال الجرجانــيُّ وهـو في مقـام الانتصـار للشعر: «وكان مُحالا أن يَعْرِفَ كونَه [القرآن] كذلـك، إلا من عَرَفَ الشـعر الـذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشـك أنه كان ميدان القوم إذا تجـارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهمـا قَصَبَ الرِّهـان، ثم بحث عن العلل التــي بها كان التبايـن في الفضل، وزاد بعض الشـعر على بعض، كان الصَّادُّ عن ذلك صـادّاً عـن أن تُعْرَف حجـة الله تعـالى»،[٤٠]
فالجرجانــيُّ في وصفه السـابق ألـزم الباحث في الإعجاز بمعرفة الشـعر ونقده، والفصاحة والبلاغة فضلا عن معرفة علل تفضيل شـاعر عـلى آخر، وكأنّي به يريـد أن يقول: إنّ ادراك الإعجاز لا يمكـن أن يكون إلا من خلال ثقافة نقديّـة تمكّن الباحث من الموازنة بين أسـلوب القرآن، وأسـاليب الشعر ليعرف الجهات التي يتفرّد بها القرآن، أو يتفوّق فيها، وعلل التفرّد، والتفوق وهذا يعني أنّ عبد القاهر وظّف النقد لمعرفة الإعجـاز، وصار واضحا عنده أنّ العلم بالنحو، ومعرفة معانيه، ونقد الشعر من أهمّ أدوات البحث في الاعجاز.[٤١]
وكان الجرجانيُّ قد دافع عن الشعر، وأهدافه، ومراميـه، فقد وجد عن قرب أنّ(مَـنْ زَعَمَ أن ذمَّــه له [الشـعر] من أجـل ما يجـد فيه من هَزْل، وسُخْف، وكَذِب، وباطل، فينبغي أن يَذُمَّ الكلام كلـه، وان يفضل الخَـرَسَ على النطق، والعِــيَّ على البيان)،[٤٢] وحجّـة الجرجانيُّ أنّ

الذمّ – هنا – يفارق الحقيقة؛ إذ إنّ النثر فيه من الهزل، والسخف أضعاف ما في الشعر، وهو ما ينبغي الذمّ أولا،فذمّهم مبنيّ على سوء القصد الذي يريد الحطّ من الشعر؛ لأنّه شعر حسب.

فالشعر عند الجرجانيُّ: (قيَّدَ على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسّل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدّي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين مخلّدة في الباقين، وعقول الأوّلين مردودة في الآخرين، وترى لكل من رام الأدب، وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والفعل، مناراً مرفوعاً، وعلماً منصوباً، وهادياً مرشداً، ومُعَلِّماً مُسَدِّداً)،[٤٣] وهنا أدرك الجرجانيُّ أكثر من وظيفة للشعر تناولها بالحصر، والتحديد، وكان رائده أن الشعر نتاج إنساني متميّز لا يمكن إقصاؤه ولا إنكار مزاياه.

ومن المنهجيّة الحكيمة التي اتّبعها عبد القاهر أنه كان يعرف بالشعر مكان البلاغة، ويجعله مثالا في البراعة، ويحتجّ به في تفسير كتاب الله تعالى وسنّته، وهو ينظر في نظمه، ونظم القرآن الكريم فيرى موضع الإعجاز، ويقف على الجهة التي منها كان، ويتبيَّنَ به الفصل والفرقان،[٤٤] فالجرجانيُّ في لمحاته السابقة لم يترك شكّا لمن تريد أن تسوّل له نفسه الطعن بالشعر، فالباحث في الإعجاز لا يجد ضيرا من أنْ يدقّق في نظم الشعر، ثمّ يدقّق النظر في نظم القرآن ؛ لكي يتمكّن من فهم النظم القرآني، والإحساس بإعجازه الخاص.

وجاهر الجرجانيُّ بضرورة استشهاد العلماء بشعر امرئ القيس، وأشعار الجاهلية لما فيها من أثر(في تفسير القرآن، وفي غريبه وغريب الحديث)،[٤٥] وقد جاء كلامه السابق في سياق الاحتجاج على من ذم الشعر، والشعراء.

وكان عبد القاهر قد قارب حقيقة الأدب القائمة على بنية التخيّل والإغراق، والمبالغة، واقتفاء اثر اللغة المجازيّة، وذهب إلى أن صنعة الشعر (إنما تَمُدُّ باعها، وتنشر شُعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرّع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع، والتخييل، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب، والتمثيل، وحيث يقصد التلطُّف، والتأويل، ويُذهب بالقول مذهب المبالغة، والإغراق في المدح، والذم، والوصف، والنعت، والفخر، والمباهاة، وسائر المقاصد، والأغراض، وهنا يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع، ويزيد، ويُبدى في اختراع الصور،ويعيد)،[٤٦] وفي قوله هذا أخرج الشعر من دلالة (الكذب) المنطقية ليؤكد حقيقته القائمة على التخييل والتأويل والاختراع، وليرسخ في الأذهان بُعْدَ الشعر عن الصدق بوصفه معنى شائعاً، فحكم الشعر عنده (فيما يصنعه من الصوَر، ويُشكّله من البِدَع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يُتَوهَّم بها الجمادُ الصامتُ في صورة الحيّ الناطق، والموتاتُ الأخرسُ في قضبة الفصيح المُعرب، والمُبيّن المميِّز، والمعدومُ المفقودُ في حكم الموجود المشاهَد)،[٤٧] وهذا كاف لأن يخرج الشعر من أي دلالة تمتُّ إلى الحقول المنطقية، ليدخله عامدا في صلب اللغة المغايرة.

إن صوغ الشعر عند عبد القاهر يقوم على جملة من المقومات التي بها يتمكن الشاعر من أن يصنع « من المادة الخسيسة بِدَعا تغلو في القيمة، وتعلو، ويفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ما ترى به الكيمياء وقد صَحَّت، ودعوى الإكسير وقد وَضَحَتْ، إلا أنها روحانية تتلبّس بالأوهام، والإفهام، دون الأجسام، والأجرام »،[٤٨] بمعنى أنها وظيفة مغايرة لطبيعة الأشياء، ومفارقة لمنطق التحديد، والإلزام. هذا بإيجاز دقيق تحديد لرأي عبد القاهر الجرجانيُّ في(الشعر)، وفيه

أماط اللثام عن:
١ـ وظيفة الشعر الأدبيّة، والجماليّة والتعليميّة.
٢ـ جهّل من ذمّ وظيفة الشعر الدينيّة، والدنيويّة.
٣ـ منهجيّته السابرة لأعماق الشعر التي عرف من خلالها مكان البلاغة للاحتجاج لتفسير القرآن وصولا إلى الكشف عن إعجازه.
٤ ـ أن الشعر ليس من المنطق لذا لا يجوز نعته بالكذب لأنه معنى متوهم في النفس.

ممّا تقدّم يتّضح أنّ موقف الجرجانيُّ من الشعر يشتمل على(نظرة) أخذت بالحسبان أهميّته بوصفه خطابا إبداعيا يسهم في فهم الظواهر الحياتية ويفسرها، ويعلن موقفه منها؛ ولهذا استشهد به في كتابيه الجليلين: أسرار البلاغة، و دلائل الاعجاز إيمانا منه بأن الشعر رافد ابداعي إنسانيٌ متميّز في مجرى الحياة، فهو معجز في نظمه قياسا بما يقال من كلام أدبيّ آدمي، وكان الجاحظ (٢٥٥هـ) ممّن استهوته فكرة قداسة الشعر عند العرب في مستواها الوزني حين أشار إلى أنّ الشعر الذي هو حكمة العرب لا يترجم (ولو حوّلت حكمة العرب[الشعر] لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن)،[٤٩] ناعتا وزن الشعر بالمعجز البشري الذي لا يقوى على إبداعه سوى الشعراء.

إنّ السؤال الذي يفرض وجوده الآن: لماذا تميّز موقف الجرجانيُّ من موقف الباقلانيُّ مع أنّ الاثنين شُغلا بقضيّة(اعجاز القرآن)، وكانا قد انحدرا من مدرسة فكريّة واحدة:(الأشعريّة)،[٥٠] وكان الشعر وسيلتهما لإثبات صحة الأفكار التي آمنا بها ؟.

لقد كشف الشيخ محمود محمد شاكر أثر الفكر الإعتزالي في كتاب (دلائل الإعجاز) حين رأى أنّ أقوالا كثيرة فيه لم يصرّح الجرجانيُّ بنسبتها إلى أحد هي في الحق أقوال القاضي عبد الجبار الأسدآبادي (٤١٥هـ) صاحب كتاب (المغني في أبواب التوحيد والعدل) المتكلّم المعتزلي،[٥١] أي أنّ ثمّة علاقة تأثير وإعجاب بين الاثنين.

واستطاعت الباحثة (سلوى النجّار) أن تؤكّد ما بذره الشيخ محمود محمد شاكر حين انطلقت من افتراض دعمته بأفكارها لتستدلّ عليه مؤدّاه أنّ الجرجانيُّ (لم يفكّر من داخل المذهب الاشعري، وإنّما كان يفكر بمنظومة المذهب المعتزلي)،[٥٢] وأن المصادر في إشاراتها التي تحيل على اشعريته كانت (خالية من كلّ دعم موضوعي أو توسع)[٥٣] وحججها:حضور نصّ القاضي عبد الجبار ضمن مؤلفاته،[٥٤] وهو من أعمدة المعتزلة، وأن شيخيّ عبد القاهر الوحيدين: محمد بن الحسين بن عبد الوارث الفارسي (٤٢١هـ)،وهو ابن أخت أبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) المعتزلي، وعبد العزيز الجرجانيُّ (٣٩٢هـ) الذي كان هو الآخر معتزليّا كانا قد أثّرا فيه،[٥٥] فضلا عن أنّ قيام عبد القاهر الجرجانيُّ بشرح كتاب (الايضاح) للفارسي نفسه،[٥٦] يكشف عن وجه من وجوه التأثر والإعجاب.

إنّ اقتراب عبد القاهر من الفكر(الإعتزالي) يتّضح في موقفه الواضح من الشعر، وهو موقف لا يمكن فصله عن موقف (المعتزلة) التي رأت أن الأسس البلاغيّة في القرآن الكريم هي نفسها الأسس البلاغية لكلام سائر البشر، وأن معايير الجمال في النص القرآني هي نفسها معايير الجمال في أي نص أدبي،[٥٧] ومن هنا نفهم (سرّ)،استشهاد الجرجانيُّ بالشعر في كتابيه:(أسرار البلاغة)، و(دلائل الاعجاز)، فهو إذْ يقارب بين لغة القرآن الكريم القائمة على نظم ربّاني معجز، ولغة الشعر القائمة على تخيّل انسانيّ منظّم، إنّما يقارب بين نظمين: الاوّل متناه في إعجازه، والآخر

يمكن تعلّمه، والنسج على منواله.

الخلاصة:

١- كان الباقلانــيُّ يريد أن يجعل من الشــعر مهمــا بلغت مرتبته من القبــول الأدبي خطابا أدنــى من القــرآن الكريم لا لأنّــه خطاب قوليّ حســب، بــل لأنّــه خطــاب والقول لــه ضرب الشيطان فيه بســهمه، وأخذ منه بحظه، فهو مدنّس لا يمكن أن تتقارب لغته مع لغة القرآن الكريــم، وقد توصّل إلى هذا التوصيف بســبب تأثير الفكر الأشــعري في أهمّ مقولاته النقديّة، وهــذا يعنــي أنّ سرّ الفهم النقــدي للباقلانيُّ كان يرتبط بدرجة اندماجه بأفكار الأشــاعرة، ومحدداتهم النقديّة الخاصّة باللغة والأدب.

٢- لقــد أدرك عبــد القاهــر الجرجانــيُّ أنّ للشــعر وظيفة أدبيّة، وأخرى جماليّة، وثالثة تعليميّة ولعــلّ هذا الإدراك ما كان إلا بســبب ســعة أفقه النقدي، واطلاعه على عدّة تجارب نقديّة وبلاغيّة، وإيمانه التام بضرورة الفصل بــين الــرأي النقــديّ والعقائــدي انطلاقا من حقيقــة جوهريّة تتمثّل في أن الشــعر إبداع له القدرة على التشــكيل المغاير الــذي يبتعد عن حقائــق الوجود؛ لأنّه بنيّــة أدبيّة مخيّلة قائمة على الإغراب، وقد جهّل من ذمّ وظيفة الشــعر الدينيّة، والدنيويّة: الاصلاحيّة، وجعله منطلقا للاحتجاج لتفســير القرآن الكريــم وصولا إلى الكشــف عن إعجــازه، أي أن الجرجانيُّ أدرك أهميّة الشعر في الحياة.

الهوامش:

١- للمزيد عن هذا الوصــف ينظر: كتاب الصناعتين: أبو هــلال العســكري(٣٩٥هـ): تحقيــق علي محمد البجــاوي، ومحمــد أبــو الفضــل إبراهيــم دار الفكر العربــي ط ٢: ١٩٧١: ١٤٤، ووظيفــة الشــعر في التراث البلاغي النقدي عند العرب:د. وســن عبد المنعم الزبيدي: منشورات المجمع العلمي العراقي: ٢٠٠٩.

٢ـ ينظــر: كتــاب الحيــوان: أبــو عثمــان الجاحظ: تحقيق عبد الســلام هــارون: مطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر: ط٢: ١٩٦٥: ١: ٧٤.

٣ـ الرّســالة: تحقيــق وشرح: أحمد شــاكر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر:١٩٤٠: ٥١، ٥٢.

٤ـ مجاز القــرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى: عارضه بأصولــه وعلّق عليه : د. محمد فؤاد ســزكين : مكتبة الخانجي بالقاهرة:١: ٨.

٥ـ تأويل مشــكل القرآن: ابن قتيبــة: شرحه ونشره: الســيد أحمد صقر: دار الكتب والتراث القاهرة : ط٢: ١٩٧٣: ٢١، ٢٢.

٦ـ سورة إبراهيم: الآية: ١٤/ ٤.

٧ـ تنظــر هــذه الوجوه جميعهــا في: إعجــاز القرآن: الباقلانــيُّ تحقيق الســيد أحمــد صقــر دار المعارف بمصر١٩٦٣ :٣٥ -٤٧.

٨ـ نكت الانتصار لنقل القــرآن: الباقلانيُّ: تحقيق د. محمد زغلول سلام: الإسكندرية: ١٩٧١ : ١١٢.

٩ـ إعجاز القرآن: الباقلانيُّ :١٢٦.

١٠ـ المصدر نفسه: ٣٠٢.

١١-إعجاز القرآن:١٩٥.

١٢-نكت الانتصار لنقل القرآن: الباقلانيُّ: ٢٤٩.

١٣-المصدر نفسه:٢٦٠.

١٤-المصدر نفسه:٢٧٠.

١٥-المصدر نفسه :٢٨٤.

١٦-كان الباقلانــيُّ قــد صرّح بأشــعريّته حــين قال:

(ذكر أصحابنـا....: ٣٣، ويريد بأصحابه الأشـاعرة، وقال:(وذهـب أصحابنا: ٥٩)، وممّن قال بأشـعريّته ابن الجوزي في المنتظم:٧:٢٦٥.

١٧- بيان اعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القـرآن: تحقيـق محمد خلـف الله، ومحمـد زغلول سلام: دار المعارف مصر:١٩٧٦ : ٢٢

١٨-ينظر: المصدر نفسه.

١٩-المصدرنفسه: ٢٣.

٢٠_ اعجاز القرآن: ٢٦.

٢١ _ إعجـاز القـرآن بـين المعتزلـة والأشـاعرة: د منـير سـلطان: منشـأة معـارف الإسـكندرية ط٣: ١٩٨٦:٢٤٣.

٢٢- اعجاز القرآن: ٢٤٥.

٢٣- المصدرنفسه: ٥١.

٢٤- المصدرنفسه: ٥٤.

٢٥- المصدر نفسه: ٥٥.

٢٦- المصدرنفسه: ٥٧.

٢٧- المصدرنفسه: ٢٨٥.

٢٨- إعجاز القرآن: ٥٦.

٢٩- المصدرنفسه.

٣٠- اعجاز القرآن: ١٨٠.

٣١- ينظر: اعجاز القرآن: ٣٢٧، ٣٢٨ .

٣٢- إعجـاز القرآن بـين المعتزلة والأشـاعرة :د منير سلطان :١٠٣.

٣٣- النثر الفني في القـرن الرابع الهجري: ٢: الهيئة العامة المصرية للكتاب: ٢٠١٠: ٧٢،٧٣.

٣٤- النقـد المنهجـي عنـد العرب و منهـج البحث في الادب واللغـة: د. محمـد منـدور: دار نهضـة مـصر للطباعة والنشر القاهرة : ١٩٧٢ :٣٨٠ .

٣٥- الظاهـرة القرآنيـة: مالك بن نبـي: ترجمة عبد الصبـور شـاهين: مقدمـة محمود محمد شـاكر:دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر سوريا:٢٠٠٠: ٤٤.

٣٦- اعجاز القرآن: ٣٠٢.

٣٧- دلائـل الاعجاز قرأه وعلّق عليـه أبو فهر محمود محمد شـاكر النـاشر مكتبـة الخانجـي في القاهرة : ١٩٨٤.: ٧، ٨ .

٣٨- دلائل الإعجاز: ٨.

٣٩- ينظـر: شرح دلائـل الاعجاز للإمـام عبد القاهر الجرجانيُّ: د. محمد ابراهيم شادي: دار اليقين للنشر والتوزيع مصر: ط١: ٢٠١٠: ٦٤.

٤٠- دلائل الإعجاز: ٨، ٩.

٤١ - ينظـر: شرح دلائـل الاعجاز للإمـام عبد القاهر الجرجانيُّ: د. محمد ابراهيم شادي: ٦٥.

٤٢- دلائل الإعجاز: ١١.

٤٣- المصدر نفسه: ١٥.

٤٤ - ينظر: نفسه: ٢٦.

٤٥ - دلائل الإعجاز: ٢٧.

٤٦- أسرار البلاغـة: عبد القاهر الجرجانيُّ قرأه وعلق عليـه: محمود محمد شـاكر النـاشر دار المدني بجدة ط١ :١٩٩١: ٢٧٢

٤٧- المصدر نفسه: ٣٤٣.

٤٨- أسرار البلاغة : ٣٤٣.

٤٩- كتاب الحيوان: تحقيق وشرح عبد السلام محمد

هــارون: مطبعة البابي الحلبي وأولاده : ط٢: ١٩٦٥: ١: ٧٥.

٥٠- ممّن قال بأشــعريّة الجرجانيُّ ينظر: ابن العماد في كتابه(شــذرات الذهــب:٣: ٣٤٠) ، والســيوطي في كتابه(بغية الوعاة :٢: ١٠٦).

٥١- ينظر: دلائل الاعجاز: ج، د.

٥٢- الجرجانــيُّ أمــام القــاضي عبد الجبار: ســلوى النجــار: نحــو رؤيــة جديــدة في قضايــا اللغــة لدى الجرجانيُّ: التنوير:ط١: ٢٠١٠ : بيروت:٣٧٤.

٥٣- المصدر نفسه: ١٧.

٥٤- المصدر نفسه ٣٧٤.

٥٥- الجرجانــيُّ أمــام القــاضي عبد الجبار: ســلوى النجار: ١٠، ١١.

٥٦- المصدر نفسه: ١٣.

٥٧- ينظــر: الإعجــاز البلاغي في القــرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق:مكتبة بستان المعرفة: الإسكندرية مصر: ٢٠٠٥ :٢١.

المصادر والمراجع:

***القرآن الكريم**

١ــ أسرارالبلاغــة: عبد القاهر الجرجانــيُّ قرأه وعلق عليــه: محمود محمد شــاكر النــاشر دار المدني بجدة ط١ :١٩٩١م .

٢ــ الإعجــاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق: مكتبة بستان المعرفة: الإسكندرية مصر: ٢٠٠٥ .

٣ ــ إعجــاز القــرآن: الباقلانــيُّ: تحقيق الســيد أحمد صقر: دار المعارف بمصر: ١٩٦٣م.

٤ ــ إعجــاز القــرآن بــين المعتزلة والأشــاعرة: د منير سلطان: منشاة معارف الإسكندرية ط٣: ١٩٨٦م.

٥ــ تأويل مشــكل القرآن: ابن قتيبــة: شرحه ونشره: الســيد أحمد صقر: دار الكتب الــتراث القاهرة : ط٢: ١٩٧٣م .

٦ــ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام: دار المعارف مصر:١٩٧٦م.

٧ــ الجرجانيُّ أمام القاضي عبد الجبار: سلوى النجار: نحو رؤيــة جديدة في قضايــا اللغة لــدى الجرجانيُّ: التوير:ط١: ٢٠١٠ : بيروت .

٨ــ دلائــل الاعجاز قــرأه وعلّق عليه أبــو فهر محمود محمــد شــاكر النــاشر مكتبــة الخانجــي في القاهرة: ١٩٨٤م.

٩- الرســالة: الشــافعي: تحقيق وشرح: أحمد شاكر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر:١٩٤٠م.

١٠-الظاهــرة القرآنيــة: مالــك بن نبــي: ترجمة عبد الصبور شــاهين: مقدمــة محمود محمد شــاكر: دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر سوريا:٢٠٠٠.

١١-كتاب الحيــوان: ابو عثمان الجاحظ: تحقيق عبد الســلام هــارون: مطبعة مصطفــى البابــي الحلبي: مصر: ط٢ :١٩٦٥ :١.

١٢مجاز القرآن: أبــو عبيدة معمر بن المثنى: عارضه بأصولــه وعلّق عليــه: د. محمد فؤاد ســزكين: مكتبة الخانجي بالقاهرة:١.

١٣-النثــر الفني في القــرن الرابع الهجــري: د. زكي مبارك: ٢: الهيئة العامة المصرية للكتاب: ٢٠١٠: ٧٢ ،٧٣.

١٤-النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الادب واللغــة: د. محمــد مندور: دار نهضة مــصر للطباعة والنشر القاهرة : ١٩٧٢م.

١٥- نكت الانتصار لنقل القرآن: الباقلانيُّ: تحقيق د. محمد زغلول سلام: الإسكندرية: ١٩٧١م.